الحضارة الغربية في رحلة: تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي

زواوية طيبي طالبة دكتوراه(ل.م.د)
بإشراف الأستاذ الدكتور: محمد زمري
جامعة تلمسان (البليدة2)

الملخص:

رحلة الطهطاوي إلى باريس مثلت الانفتاح على الحضارة الغربية؛ وما وصلت إليه من رقي وازدهار شمل جميع المجالات العلمية؛ والرحالة انبهر بواقع المجتمع الغربي فنقل لنا مشاهداته وانطباعاته الشخصية حول عادات وأخلاق أهل باريس؛ كما تحدث عن العمارة والصنائع والفنون وعقد مقارنة بين الغرب والشرق الإسلامي الذي رآه مازال متخلفا لذا طالب في مشروعه الإصلاحي بتعليم المرأة وتثقيفها.

فكانت رحلته جسرا للتواصل الحضاري مع المدنية الغربية الحديثة.

Abstract

The voyager tahtaoi trip to paris which is a gate to the open minded western world and to what they have achieved from process and flourishment in all scientific domains.

He was astomished about the core of their societies and he transmited what he witnessed as well as his personal impressions about the tradtion customs crafts and even arts.Them he made a comparison between the westerns that were still underdeveloped he added tahtaoi in his renaissance project he asked responsibles to raise womens rights teach and educato

them so his trip was a crosscultural bridge with the western world.

توطئة:

إن ما وصلت إليه المدنية الغربية من تقدّم باهر وتطوّر حاصل ما كان لتتضح معالمه، وتظهر نتائجه لولا الأسس المتينة والقواعد الصحيحة التي وضعها المسلمون في العصور الذهبية التي ازدهرت فيها المعارف والعلوم فظهرت اكتشافات شتّى في ميادين الحياة، في الطب والهندسة والفلك...إلخ.

لقد افتتن بعض المسلمين بالحضارة الغربية وببريقها اللاّمع وظلّ هاجس زيارتها يراودهم بين الفينة والأخرى محاولين التعرّف على عمرانها. والنهل من علومها ومعارفها، ومن هؤلاء المغرمين بحب السفر إلى ديار الغرب الرحالة رفاعة رافع الطهطاوي الذي زار باريس، وانبهر بحضارتها وسجّل كل ما رآه في هذه المدينة في رحلة جمع فيها بين علوم باريس وتقاليد وأعراف شعبها وعوائدهم وأحوالهم في رحلته المسمّاة "الدّر النفيس في إيوان باريز" أو "تخليص الإبريز في تلخيص باريز".

التعريف بصاحب الرحلة:

رفاعة رافع الطهطاوي هو واحد من روّاد النهضة العلمية في مصر. ولد في مدينة طهطا إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر يوم 15 أكتوبر 1801م[1] وكان نسب والده ينحدر من أشراف الصعيد وعلمائه، حفظ القرآن الكريم في صغره وأجاد تعلّم القراءة والكتابة في سن الثانية عشر، بعد وفاة والده تكفّل به أخواله الذي ينتمون إلى أسرة زاخرة بالشيوخ والعلماء والصالحين منهم: الشيخ الانصاري، الشيخ عبد الصمد الأنصاري... وفي هذا الجو العلمي نمت معارك رفاعة وحرص أخواله على تحفيظه جميع المتون المتداولة في المعقول والمنقول. ولمّا بلغ سن السادسة عشر قرّرت أمّه إلحاقه بجامع الأزهر ليكمل مساره العلمي فصار يلقي دروسا بجامع مدينته ملوى يشرح فيها كتاب صغرى الصغرى للسنوسي فاندهش أقاربه وجيرانه عند سماعهم الدرس المذكور"[2].

شيوخ الطهطاوي:

وفي تلك السنوات تلقى رفاعة الطهطاوي العلم على عديد من شيوخ الأزهر منهم الشيخ الفضالي الذي قرأ عليه صحيح البخاري.

درس جمع الجوامع في الأصول ومشارق الأنوار في الحديث على الشيخ حسن القويسني.

درس الحكم لابن عطاء السكندري على الشيخ البخاري.

درس شرح أبي عقيل على الشيخ الدمنهوري[3]

وكان أهم أستاذ تتلمذ عليه الطهطاوي الشيخ حسن العطّار فشاء القدر أن يجلس بين يديه ينهل من علمه، ويصقل من حكمته فكان وجود الشيخ العطار في حياة الطهطاوي بمثابة المعلّم والصديق. فلمس فيه الشيخ حدّة الذهن والدأب المتواصل في تحصيل العلم.

وكان الشيخ يعامل تلميذه رفاعة معاملة خاصّة عن سائر طلبته "فكثير ما كان الطهطاوي يلازم بيت أستاذه المذكور في غير الدروس ليتلقى منه علوما أخرى كالتاريخ والجغرافيا والأدب..."[4]

مؤلفات رفاعة الطهطاوي:

ترك الطهطاوي تراثا أدبيا زاخرا في مختلف العلوم نذكر أهمّ مؤلفاته:

– رحلته المشهورة: تخليص الابريز في تلخيص باريز.

– المرشد الأمين للبنات والبنين وهو عبارة عن مشروع تربوي إصلاحي يحوي نصائح مفيدة إلى فئة الشباب متمثلة في التشبّث بالدّين وبتعاليمه والتحلّي بالأخلاق الفاضلة لأن صلاح المجتمع يكون بصلاح الفرد وطالب بتعليم المرأة وتثقيفها.

كان مشرفا على مدرسة الألسن بمصر سنة 1835م[5]

كان مشرفا على جريدة الوقائع المصرية.

تولّى رفاعة نظارة مجلة "روضة المدارس" هي مجلة علمية [6]

توفي الطهطاوي سنة 1873م[7] بعد أن وضع مصر على بداية حركة ثقافية وعلمية جديدة.

سبب القيام بالرحلة:

طلب محمد عليّ أن ينتخب من علماء الأزهر إماما للبعثة المسافرة الى فرنسا. فرشّح الشيخ العطار تلميذه الطهطاوي على رأس تلك البعثة وكان هدف محمد علي يرمي إلى تلقي العلوم الحديثة من أجل النهوض بمصر والدفع بها إلى مصاف الدول المتقدمة والوقوف على منجزات الحضارة الأوربية الحديثة. كان الطهطاوي يرأس الوفد المتوجّه إلى باريس باعتباره إماما لهم يؤمهم وقت الصلاة ويذكرهم بتعاليم الشرع الإسلامي كما أوصى الشيخ حسن العطّار تلميذه عند سفره "ألا يكتفي بعمله كإمام للصلاة بل عليه أن يسجّل كل ما يراه أثناء رحلته وأن يحاول الاستفادة من علوم الغرب"[8]

لما زار الطهطاوي باريس انبهر لما وصلت إليه المدنية الحديثة من تطوّر وازدهار في جميع العلوم، فدخل حياة جديدة لم يكن يعرفها من قبل رأى عادات واعراف منافية لما يعيشه الشرق الإسلامي فراح يتعلّم لغة القوم الذين احتكّ بهم ليأمن شرّهم ويرسم بقلمه أفكارهم، في هذه الرحلة يلوح فيها صراع بين القديم والجديد بين الاصالة والمعاصرة وهذا ما ستكشفه لنا نصوص الرحلة التي نحن بصدد دراستها.

نهر السين:

نجد أن الطهطاوي أعجب بنهر السين الممتلئ بالمراكب العظيمة وعلى ضفافه المباني العمائرية خاصّة الحمامات حيث يقول: "ومن غرائب نهر السين أنه يوجد فيه مراكب عظيمة وفيها أعظم حمّامات باريس المشيّدة البناء، وفي كل حمّام منها أبلغ من مائة خلوة"[9] ثم يسترسل في وصف نهر السين بأنّ له ستة عشر قنطرة ولكل قنطرة خمسة قواصير من الحديد.

العمارة في باريس:

العمارة هي فن تشييد المباني والمنشآت ليغطي بها الإنسان احتياجاته المادية والمعنوية، وذلك باستخدام مواد

واساليب إنشائية مختلفة، والعمارة في باريس حسب شهادة الطهطاوي بلغت أوجها من التطور: "... وقد تقرّر أن الملّة الفرنساوية ممتازة بين الامم الإفرنجية بكثرة تعلّقها بالفنون والمعارف، فهي أعظم أدبا وعمرانا والبنادر أولى في العمارات عادة من القرى والضياع، والمدن العظمى أولى من سائر البنادر... لا عجب أن قيل إنّ باريس من أعظم بلاد الإفرنج بناء وعمارة، وإن كانت عمارتها غير جيّدة المادة فهي جيّدة الهندسة والصناعة"[10].

إن العمارة في باريس وخاصة في المدن خضعت لمقاييس هندسية وتخطيط معماري راق ما أضفى عليها لمسة جمالية.

عادات الإفرنج:

إذا انتقلنا إلى عاداتهم وطباعهم نجد أنّ الطهطاوي وقف أكثر من مرّة موقف إعجاب فوصف بيوتهم ونظافتها وأغذيتهم وعاداتهم في المأكل والمشرب، ويُدهش الطهطاوي في ذلك الوقت نظام المائدة الذي يراه أوّل مرّة في باريس، فلا يملك إلاّ أن يصفه بأنه ترتيب عظيم وفيه يقول: "وممّا يشاهد عند الإفرنج أنهم لا يأكلون أبدا في صحون النحاس بل ولا في أونية أبدا ولو مبيضة فهي للطبخ فقط بل دائما يستعملون الصحون المطلية، وللطعام عندهم عدّة مراتب معروفة وربما كثرت وتعدّدت كل مرتبة منها، فأوّل افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة، ثم بعده باللّحوم، ثم الخضروات، وربما كانت الصحون مطلية بلون الطعام المقدّم...ثم يختتمون أكلهم بأكل الفواكه ثم بالشراب المخدّر، إلا أنهم يتعاطون منه القليل ثم بالشاي والقهوة، وهذا الأمر مطرد للغني والفقير كل على حسب حاله"[11] .

إن موضوع الطعام نادرًا ما أغفله الرحّالة المسلمون سواء في القديم أو الحديث لما في الطعام من أهمية كبيرة ليس لكونه غذاء الجسد بل يرتبط ذكره بإدراك الوضع الاقتصادي والاجتماعي بل حتى المعتقد الديني لدى الشعوب، وربما يشتمل كافة مظاهر الحياة الإنسانية المادية والفكرية، وعلى هذا الأساس "يشكل الطعام مركبا حضاريا في الفكر الأنثروبولوجي"[12] فطريقة جمعه وطهيه وآداب تقديمه وتناوله ما هي في حقيقة الأمر إلا سبيل ندرك من خلاله درجة ومستوى رقي حضارة ما أو تدّنيها.

ويعجب الطهطاوي بكثير من طباع أهل باريس وخصالهم التي يختصون بها بين كثير من النصارى قائلا: "اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل، ودقّة الفهم وغوص ذهنهم في الغويصات ...وليسوا أسراء التقليد أصلاً، بل يحتوي دائما معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه، حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة، ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة"[13].

سكان باريس يتميزون بقوّة الذكاء ودقّة التمحيص في معرفة أصل الأشياء وهم من هواة التجديد ونبذ التقليد.

ومن طباعهم أيضا التغير والتنوع في ارتداء الملابس، وتراهم يتصفون بالخفة في مشيتهم خصوصا على السكك الحديدية وهم متقلبو المزاج يظهرون لك صفة الفرح. وبعد دقائق تبدو عليهم ملامح الحزن إلاّ أن آرائهم في السياسة ثابتة، كل واحد يلتزم بمذهبه وهم يحبّون السفر طوّافين بين المشرق والمغرب حتى أنهم قد يلقون أنفسهم في المهالك لمصلحة تعود على وطنهم، كما أنّهم يحبّون الغرباء ويرغبون في معاشرتهم خصوصا إذا كان الغريب متجمّلا بالثياب النفيسة، وهم ليسوا كالعرب كرماء أسخياء بل البخل سجيتهم لأنهم إذا قصدهم محتاج يواسونه بالقول ولا يكرمونه بالمال، ومن استعار منهم مبلغا من المال لا يعطوه إيّاه إلا إذا ضمنوا المكافأة عنده، هذا إضافة إلى تحلّيهم بالرياء وحب النفس والترفع عن الآخرين، ومن طباعهم الحميدة وفاء الوعد وعدم الخيانة، ومن صفاتهم القبيحة كفر النعم. فبعضهم يرون أن شكر المنعم واجب، وآخرون يفتقدون إلى هذه الصفة بالرغم أنها جبلة عند سائر الأمم والملل[14].

أخلاق نساء باريس:

المرأة في باريس ملكة أمرها لها كامل الحرية باعتبارها كفؤًا للرجل. فمن الخصال التي عابها الطهطاوي على المرأة منطلقا في حكمه من ثقافته الإسلامية : "ومن

خصالهم الرديئة قلّة عفاف كثير من نساءهم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة بمثابة المصاحبة والملاعبة والمسايرة، وممّا قاله أهل المجون الفرنساوية: "لا تغتر بإباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ولا تستدل بذلك على عفافها.. كيف والزنا عندهم من العيوب والرذائل لا من الذنوب الأوائل خصوصا في حقّ غير المتزوّج فكأن نسائهنّ مصداق قول بعض الحكماء : لا تغتر بامرأة ولا تثق بمال وإن كثر، وقال آخر: النّساء حبائل الشيطان"[15].

إن المرأة في باريس لها مطلق الحرية في مصاحبة من تشاء دون مراعاة مشاعر الزوج وهو في هذا يعقد مقارنة في وضع المرأة في الشرق التي هي عبارة عن متاع البيت، وفي بلاد الإفرنج سلعة في متناول الجميع.

كان سكان فرنسا يقدّسون العقل حتى وصل الأمر أنه ذكر نقلا عنهم: "إن عقول حكمائهم وطبعهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منها"[16]

الحضارة الغربية لن تستطيع الوصول إلى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية التي أرسى قواعدها الإسلام حاملا رسالة عالمية تحثّ على طلب العلم من منابعه المختلفة. فكيف لهؤلاء الغرب أن يجعلوا عقل الحاكم أعظم من عقل النبيّ والرّسول صلى اللّه عليه وسلّم قد أوتي بمجامع الكلام فصاحة وبلاغة فكان نبيّا معلّما ومربيّا.

كما نعلم بعد وصول الطهطاوي إلى أرض فرنسا انكبّ على تعليم اللغة الفرنسية، ولمّا حصل له ذلك بدأ بدراسة الجغرافيا عن طريق ترجمة بعض الكتب الجغرافية، ثم درس الدستور الفرنسي فحاول فهم نظام فرنسا عن تدبير شؤون رعيتها قائلا: "...ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر، فنقول : قد سلف لنا أن باريس هي كرسي بلاد الفرنسيس، وهي محل إقامة ملك فرنسا وأقاربه وعائلته المسمّاة البربرون، ومملكة الفرنساوية متوارثة وملك فرنسا ليس مطلق التصرّف، وأنّ السياسة الفرنساوية هي قانون مقيّد بحيث إنّ الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين ...والقانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن يتخذونه اساسا لسياستهم هو القانون الذي ألّفه لهم ملكهم المسمّى لويز الثامن عشر، ولا زال متبعا عندهم ومرضيا لهم وفيه أمور لا ينكر ذووا العقول أنها من باب العدل"[17].

إن أصحاب السلطة من الفرنسيين يسيرون وفق القانون الذي سنّه ملكهم لويز الثامن عشر وبنود هذا القانون يجب اتباعها حتى من قبل ملك فرنسا، فحريته ليست مطلقة ليأمر وينهي كما يحب بل يجب ألا تخرج قراراته عن القانون المذكور مع مصادقة وموافقة أهل الدواوين باعتبارهم أعضاء رسميين.

وقد أشار الطهطاوي إلى بعض البنود التي تنطوي تحت القانون العام: "الفرنساوية مستوون في الأحكام على اختلافهم في العظم والمنصب والشرف... ومن الأشياء التي ترتبت على الحرية عند الفرنساوية أن كل إنسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدولة ويعاقب من تعرّض لعابد في عبادته ولا يجوز وقف شيء على الكنائس أو إهداء شيء لها إلا بإذن صريح من الدولة وكل فرنساوي له أن يبدي رأيه في مادة السياسات أو في مادة الأديان بشرط ألا يخلّ بالانتظام المذكور في كتب الأحكام"[18].

إن هذه البنود تمنح الفرنسيين حق التساوي في الحقوق والواجبات مع احترام رغبة كل شخص في اتباع الدّين الذي يريده مع مراعاة عدم الإخلال بالنظام المذكور في الأحكام التي وضعتها الدولة.

طقوس أهل باريس الدينية:

بعدما ظهر الطهطاوي بصورة الرجل السائح المعجب بحضارة باريس وعمرانها يظهر لنا في موقف آخر مهاجما لسكان باريس. فنجد من العبارات التي تُفصحُ عن نفوره من الأجانب واستنكاره لمعتقدهم ما ورد في مقدمة الرحلة قوله: "في ذكر ما يظهر لي من سبب ارتحالنا إلى هذه البلادة، التي هي ديارُ كفرٍ وعناد بعيدة عنّا غاية الابتعاد."[19]

فهذه العبارة توحي بشدّة تمسّك الطهطاوي بدينه الإسلامي وبشرائعه المقدسة ونفوره من معتقدات النصارى. سكان باريس لا يدينون بدين الإسلام، فهم على الإطلاق ينتمون إلى الديانة النصرانية فقط بالاسم لا بالشرائع التي جاءت في الإنجيل ويعبّر عن ذلك بقوله: "إن الفرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم فهم يدخلون في اسم الكتابين"[20] فلا يحترمون ما حرّمه دينهم أو أوجبه ففي أيام الصيام لا ينقطعون عن أكل اللّحم في سائر بلاد فرنسا إلّا ما ندر.

ومن الخصال التي شانها الطهطاوي وهو ببلاد الفرنسيين وضع قساوسهم الذين هم على مرتبة من الدّين النصراني وتعظم مكانتهم في الكنائس فهم أناس لا يحلّ لهم الزواج: "عدم الإذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم"[21] هذا ما يسهّل وقوعهم في الرذيلة لقوله: "إن عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم"[22].

ومن الخصال الذميمة التي عابها عليهم منطلقا في حكمه هذا من ثقافته الإسلامية أن المذنب في دين الإسلام توبته تكون بينه وبين خالقه في وضع سرّي لكن في معتقد النصارى غير ذلك: "إن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامّة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم..." [23]

فيتمثل المذنب بالجلوس على كرسي الاعتراف أمام القسيس فيعترف بذنوبه فيغفر له.

ومن أعياد النصارى يذكر الطهطاوي عيد الاحتفال بظهور السيّد المسيح: "ويسمّى عند الفرنسيس عيد الملوك، وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة وتضع فيها حبّة فول في عجينها. ويقسمون الفطير على الندامى، فكل من جاءت حبّة الفول في نصيبه فهو الملك ويختار من النساء امرأة يجعلها الملكة" [24] .

ومن جملة بدعهم في عيد القربان أنهم يصنعون: "موكبا ويلبسون فيه حللا مطرزة ويدورون المدينة بشيء يسمّونه البونديو... والمراد عندهم بالبونديو عيسى عليه السّلام"[25]. هذه القربان تعوّد القسيسين فعلها في موسمها المعتاد من كل سنة ظنّا منهم أن سيدنا عيسى عليه السلام منهم لذا وجب تقديم القربان تعبيرا عن انتمائهم لدين عيسى.

علوم وصنائع أهل باريس:

الحياة العلمية في باريس بلغت أوجّها والنخبة البشرية كان لها الدّور الفعّال في تنمية الحياة الثقافية بباريس، إنه "لا يوجد من حكماء الإفرنج من يضاهي حكماء باريس؛ بل ولا في الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر أيضا"[26]. حيث أن سائر الفنون العلمية التي يظهر أثرها بالتجارب تبرز مدى معرفة العلماء لها من خلال إتقانهم لعملهم والتفاني في تحصيل العلم ومن العوامل التي ساعدت الفرنسيين على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم التي تجعل الإنسان بمقدوره قراءة أي كتاب باللغة الفرنسية. فلا يحتاج إلى شرح أو استفسار؛ ويعقد الطهطاوي مقارنة بين لغة أهل باريس وبين اللغة العربية التي تحتاج إلى شروح وحواشي لفهم مضامينها: "بخلاف اللغة العربية مثلا فإن الإنسان الذي يطالع كتابًا من كتبها في علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ويدقّق في الألفاظ ما أمكن، ويحمل العبارة معاني بعيدة عن ظاهرها"[27] اللغة العربية واسعة المعاني كثيرة العبارات دون أن ننسى أنها لغة اشتقاقية، فالكلمة الواحدة تحمل في طيّاتها معاني ورموز كثيرة، إضافة أنّها لغة القرآن الكريم ولغة أهل الجنّة. فالحمد للّه الذي انعم على أمته الإسلامية بالإسلام وبالعلم ووحّد المسلمين على لغة واحدة ودين واحد.

إن الحركة العلمية المتطوّرة في باريس ترجمتها مجامع العلماء ومدارسهم. وخزائن الكتب المتنوعة ومن هذه الخزائن يذكر: "الخزانة السلطانية وهي تحوي سائر الكتب بلغات مختلفة إضافة إلى وجود المصاحف يقدمونها لمن يريد قراءة القرآن أو ترجمته إلى لغة أخرى. وتوجد في مدينة باريس مصاحف للبيع وبعضهم لخّص بعض سور القرآن التي يختارها للترجمة ويضمّ إليها قواعد الإسلام وبعض شعبه"[28] هذا يدلّ على أن دين

الإسلام هو أصفى الأديان وأنه يشتمل على ما لا يوجد في غيره من الأديان.

احتوت رحلة الطهطاوي مختلف العلوم والفنون المنتشرة في بلاد فرنسا فلم يكن في وسع الطهطاوي الوقوف عندها جميعا فكثيرا من الأحيان يشير إلى بعض العلوم والفنون مكتفيّا بالاسم فقط كأسماء الجمعيات والمعاهد والمدارس، ومن المصطلحات التي لمَّح إليها قوله: "وفي باريس مدارس سلطانية تسمّى الكوليج وهي مدارس يتعلّم فيها الإنسان العلوم المهمّة يدرس فيها صناعة الإنشاء والتآليف والألسن القديمة الغربية، الرياضيات. علم التاريخ، الجغرافيا، الفلسفة وأصول الطبيعيات."[29].

مدارس باريس قديما تعادل الجامعات في وقتنا الحالي، فهذه الكوليجات يوجد بها أكابر الأساتذة الذين يتميزون بمستوى علمي راقي ما يجعلهم ينجحون في تأطير تلامذتهم في مختلف التخصّصات إضافة إلى تكوين مهندسين في العلوم العسكرية مثل إعداد مخططات هندسية للقلاع والحصون والبروج وحمايتها من هجومات الأعداء، وأصحاب هذه المدارس لهم باع كبير في سائر العلوم ويتمنى أي شخص أن يكون من تلامذتها يلقى الحظوة من مدرسيها وينهل العلوم من مصنفاتها العلمية المختلفة.

وفيما يخص الصحافة التي أشار إليها الطهطاوي باسم "الجرنلات" ومفردها جرنال وهو وسيلة من وسائل الإعلام التي لم تكن تعرف في بلاده فوصفها إلى طريقة بيعها ومحتوياتها وكذبها أحيانا: "تُباع لسائر الناس وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم وكذلك سائر القهاوي وهذه الجرنلات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها وأن تستحسن وتستقبح ما تراه...وأن تقول رأيها في تدبير الدولة فلها حرية تامة ما لم تضر بذلك فإنه يحكم عليها وتطلب بين يدي القاضي"[30].

أشاد الطهطاوي بحريّة الصحافة لأنها تعبّر عن صوت الشعب مشاكله وتطلعاته المستقبلية كما ترصد الصحافة علاقة الدولة بالشعب، فحرية الصحافة من أبرز أسباب التقدم والتمدّن فهي العاملة على إصلاح المجتمع عن طريق حريّة التعبير دون المساس بقاعدة الدول الكبرى.

الطهطاوي شاهد واقع المجتمع الغربي وشعر بالفرق الشاسع بينه وبين مجتمعه الشرقي في المضمار السياسي والعلمي والاجتماعي فأبدى إعجابه بما رأى في الغرب، كما أعرب عن ألمه لتخلف الشرق وأحسّ أن هذا الشرق لن يتطوّر إلاّ إذا اقتبس علوم الغرب ونظمه السياسية والاقتصادية...وعليه قال الطهطاوي أنه وصف مشاهداته في فرنسا كي يوقظ: "من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب ومن عجم"[31] من هنا نشأ الصراع الفكري والحضاري فخرجت بذلك الرحلة عمّا ألفناه مع الرحلة في القديم من وصف البلدان والأقوام، كما وصف الطهطاوي الجمال كذلك وصف القبح وكما أعجب بحضارة باريس وعبّر عنها بانبهاره بعلومها وفنونها كذلك أبدى نفوره من طباع أهل باريس فتولّد في نفسه صراع يتأرجح بين التشبث بخيوط الموروث الثقافي وبين الأخذ بالجديد المستحدث من حضارة باريس.

لم يتأثر الطهطاوي فقط بما شاهد من مظاهر الحضارة الغربية. ففي مؤلفاته ما يثبت اطلاعه على نتاج الغرب الفكري والأدبي. فقد ذكر الطهطاوي في رحلته أنه "قرأ من كتب الفلسفة الفرنسية مؤلفات "كوندياك" في الفلسفة والمنطق، وبعض مؤلفات فولتير منها معجم الفلسفة، وبعض مؤلفات روسو "عقد التأنس والاجتماع الإنساني"[32] وكتاب الطهطاوي "المرشد للبنات والبنين" ألّفه بعد رجوعه إلى مصر فتأثّر بعلوم باريس وأراد أن يكون المسلمون مثل النموذج الفرنسي في كل شيء، وقارن بين المرأة في باريس والمرأة في مصر، فلاحظ تخلف المرأة الشرقية. لذا طالب في مشروعه الإصلاحي بتعليم المرأة حتى تصل إلى مرتبة المرأة الفرنسية. وأقام جامعة الألسن لتعليم اللغات الأجنبية، كانت هذه رحلة الطهطاوي التي كانت ترمي إلى تعلّم علوم الغرب وتطوير الحركة العلمية والثقافية في مصر بتطوير اللسان العربي والتطلع إلى آفاق جديدة في ظل

الحضارة العربية الإسلامية، وظلّت رحلة الطهطاوي جسرا للتواصل مع الآخر (الغرب) للتعرف على مظاهر الحضارة الغربية آنذاك.

الهوامش:

1-الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، التمدّن والحضارة والعمران، دراسة وتحقيق محمد عمارة، دار الشروق 2011/2010، ص 49.

2-المصدر نفسه، ص 43.

3-المصدر نفسه، ص 44.

4-المصدر نفسه، ص 45.

5-التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر، جمال الدين الشيّال، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2000. ص 54.

6-المرشد للبنات والبنين، رفاعة رافع الطهطاوي، تقديم منى أحمد أبو زيد، دار الكتاب المصري القامرة، ص 33.

7-المصدر نفسه، ص 36.

8-المصدر نفسه، ص 24.

9-تخليص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي، ص 89.

10-المصدر نفسه، ص 120.

11-المصدر نفسه، ص-ص: 58-59.

12-أدب الرحلات، محمد حسين فهيم، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 128.

13-تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ص 84.

14-ينظر المصدر نفسه، ص 85.

15-تلخيص إبريز في تلخيص باريز، ص 88.

16-المصدر نفسه، ص 89.

17-المصدر نفسه، ص-ص: 104-105.

18-المصدر نفسه، ص 116.

19-المصدر نفسه، ص 14.

20-المصدر نفسه، ص 173.

21-المصدر نفسه، ص 174.

22-المصدر نفسه، ص 174.

23-المصدر نفسه، ص 174.

24-المصدر نفسه، ص-ص: 174-175.

25-المصدر نفسه، ص 175.

26-المصدر نفسه، ص 176.

27-المصدر نفسه، ص 177.

28-ينظر المصدر نفسه، ص 181.

29-المصدر نفسه، ص 189.

30-المصدر نفسه، ص 192.

31-المصدر نفسه، ص 12.

32-المصدر نفسه، ص-ص: 149-150.